مكسيم غوركى

فى يوم ماطر ، وقف الطفل إلى جانب النعش الملقى فى زاوية بعيدة من زوايا باحة الكنيسة ، ترتعش أوصاله ، ويحدق فى ضفدعتين تتراكضان فوق غطاء النعش .

كان ذلك المنظر ، كل ما علق فى ذهن الطفل من ذكرى أبيه المسجى داخل النعش . ولولا جدته ما علم غوركى شيئاً عن مجرى حياة أبيه . وهى التى أسرت فى أذنه يوم مات أبوه بضع كلمات ، فحواها أنه مات قهراً وغمّاً من جده المتعسف الذى جعل حياة ابنه — أبى مكسيم — حياة مظلمة معتمة .

وكبر الطفل ، وأرهف حسه ، وأصبح فتى يدرك كل ما يجرى حوله . وأخذ يتبرم بحياة الشظف والحرمان التى يحياها فى كنف جده لأبيه . ولم يعد يستطيع المضى فى عمله الشاق عند ذلك الحذّاء الذى اختاره الجد معلماً للفتى . كما لم يعد فى إمكانه الاذعان لجده والصبر على إهاناته القاسية وضربه المبرح له ؛ فقرر الفرار . وظل فى نجينوفجرود أياماً يجوب الطرقات ويتسكع فى الأحياء والجوع ينهش معدته ، إلى أن عثر على عمل فى سفينة صيد . وانكب على عمله الجديد يؤديه برضا خاطر وطيب نفس ، رغم الارهاق الذى كان يلحقه به غسل الأطباق من الصباح حتى منتصف الليل ؛ وذلك لشعور يخامره لم يكن يحس به من قبل ، وعرّفه فيما بعد بالسعادة والطمأنينة . فالنهر المتدفق العريض ، والأحراش الخضر المنبسطة على طرفيه ، والسماء الزرقاء الصافية ، كل ذلك جعل الفتى يطمئن قليلا للحياة ، وينعم بتلك الطبيعة الأخاذة التى أصبحت ملك يديه .

وتجمعت لدى الفتى بضعة قروش ، اشترى بها شبكة وطوفاً وبضعة فخاخ لصيد الطيور . وغادر السفينة لا يبغى الرجوع ، وساح فى الأدغال يحمل على كتفيه عدة الصيد وغطاء يقيه برد الليل . وراح كلما أقبل الليل يحط تحت

شجرة كبيرة وينام قرير العين . وأما نتاج أتعابه من الصيد ، فكان يبيعه فى السوق بأثمان تكفل له القوت .

وأدبر الصيف ، وبدأت أسراب الطير تغادر الأدغال ميممة شطر المدن . وغادر الفتى الأدغال مكتئباً حزيناً ، وجعل يطرق الأبواب من جديد طلباً للعمل ، لكنه لم يشأ أن يضحى بحريته ، وهى أثمن شئ لديه . فصار كلما تسلم عملا لم يلبث أن يتركه ليبحث عن غيره أفضل منه .

وفى المدينة تعرف غوركى إلى كثير من الأصدقاء ، وعن طريق هؤلاء تمكن فى نفسه ميل خاص إلى شئ جديد ، هو اقتناء الكتب وقراءتها . وأقبل على مطالعة القصص بشغف عظيم ، وأخذ يبحث عنها فى مكتبات أصدقائه وعند الباعة المتجولين الذين يبيعون الكتب القديمة بأسعار بخسة . ولم تنقض أشهر قليلة حتى صار غوركى قادراً على مطالعة الكتب الأدبية وتمييز الأساليب الركيكة من الأساليب الرفيعة . ثم وجه اهتمامه لقراءة تشيخوف وبوشكين وغوغول وتيرجنيف وليرمونتوف . وعندما أتى مرة إلى نهاية قصة فكاهية استهوته وتركت فى نفسه آثاراً ، سرح فكره فى الفضاء الفسيح ينسج وقائع لقصة ما ، ثم حمل القلم وانصب فوق الطاولة يدون تلك القصة .

والحياة التى كان يشبهها دائماً بالسجن ، صارت منذ دخول الكتب إليها أدعى لمسرته وراحة باله . والكتب كما عرفها آنذاك ، كالعصافير المغردة تبعث الأنغام فى آذان المساجين ، فيطغى على نفوسهم الكئيبة قليل من البهجة والحبور .

وتفتحت مدارك الفتى ، وانصرف يسعى لتحقيق عيش رغد هنئ . لكنه لم يفكر فى الشهرة أو الاندفاع نحوها . وظن بادئ الأمر أن المسرح يكفل له العيش الخفيض . وجاب المسارح يعرض نفسه للظهور فيها ، وقبل فى أحدها . وأعطى دوراً ثانويا فى رواية عنوانها «كريستوفر كولمبس أو اكتشاف أمريكا» وطلب منه وهو فى لباس الهنود الحمر أن يشترك فى معركة تدور رحاها بين الهنود والأسبان ، ويسدد بخنجره الطعنات للغزاة المعتدين . وقام بواجبه ، ولكنه لما أصابت جسمه طعنة سيف خارقة ، نسى أن يرتمى على الأرض . فضحك الجمهور ، وغضب مدير المسرح ، وصب فوق رأسه جام شتائمه ، وطرده من العمل .

ويئس الفتى من المسرح أيضاً ، وفكر فى مسلك جديد فى الحياة .

فغادر نجينوفجرود وكان آنذاك فى الخامسة عشر ، متجها صوب قازان لينال العلم فى جامعتها .

ولم يكن يتوقع أن يقبل فى جامعة قازان بسهولة . وقد كتب فى مذكراته قبل دخول الجامعة يقول : « لو قبلت فى الجامعةعلى شرط أن أجلد فى كل أحد ، على مرأى من السكان لارتضيت الشرط . » إلا أنه قبل بمجرد وصوله المدينة . وهناك تفتحت أمامه آفاق جديدة ؛ فأخذ يتعرف إلى الحركات السياسية السرية ويتقرب إليها ، ويصادق نفرا من الطلاب الثوريين . وأما مسكنه فكان غرفة صغيرة فى أسفل بيت قديم متداع فى شارع من الشوارع المهملة . وما لبث أن عثر على مهنة كان يتقاضى منها أجراً يوميا قدره عشرون كوبيك .

وبوساطة أصدقائه من طلاب الجامعة الثوريين ، صار غوركى يتصل بجمعيات الطلبة السرية ويقرأ نشراتها ويحضر بعض جلساتها ويقف على تطورات التهيئة للثورة . وأخذ طالب الجامعة يطالع كتب آدم سميث وتشيرنيشفسكى وكارل ماركس . ثم انعدمت الحاجة إليه فى عمله فأخرج . وجرى يبحث عن عمل آخر . فتيسر له ذلك فى فرن حيث شغل مركز مساعد للفران . وكان صاحب المخبز رجلا متجبراً يدعى سميونوف يشتغل أجراء مخبزه مدة أربع عشرة ساعة فى اليوم مقابل أجور تافهة . وكان غوركى يتقاضى ثلاثة روبلات فى الشهر ، ويعمل كغيره طيلة النهار ، فلم يرضه الحال ولم يغض الطرف عن ذلك الاجحاف . لكن صاحب المخبز لم يستطع كبت نفسية غوركى الثائرة ، ولم يقدر على منعه من التذمر والشكوى . وأخذ غوركى يجمع العمال فى حلقات ، ويحدثهم بأسلوب طلى جذاب ، عن حقيقة أصحاب العمل الجشعين ، الذين يدأبون على هضم حقوق العمال ومعاملتهم بالعنف بدل اللين . وبينما غوركى يبث تعاليمه بين العمال فى إحدى تلك الجلسات ، إذ بسميونوف يفاجئه ، فيتنمره ويغلظ له القول وينزل به أشد العقاب .

لكن إيمان غوركى بحرينه وبأفكاره لم يتزعزع ، فثبت أمام هجمات المعلم ثبوتا راسخاً . ولما خطف سميونوف من يده مرة كتابا كان غوركى يقلب صفحاته ، وحاول إلقاءه فى النار ، صرخ غوركى فى وجهه صرخة هائلة وقبض بأصابعه الطويلة على معصمه واسترجع الكتاب وهو يقول : « أتجرؤ

يا هذا على إلقاء الكتاب فى النار ! ... » ولم يملك صاحب المخبز إلا الانسحاب من الغرفة خوفا من غوركى الذى ارتسمت على وجهه أمارات غضب هائل .

بعد تلك الحادثة بأيام ، راح غوركى يعد العدة لاضراب عام داخل المخبز فكشف سميونوف الأمر قبل وقوعه ، وطرد غوركى للحال . فانضم إلى مخبز يشرف عليه رجل يدعى درنكوف وتديره إحدى الجمعيات السرية ، وتخصص مرابحه لدعم المنظمة ماليا . وفى تلك الأثناء ، تشدد رجال الشرطة فى مطاردة الرجال الثوريين من أعضاء الجمعيات السرية ، وعثروا على بيت غوركى فدخلوه عنوة وقلبوا محتوياته وبعثروا متاعه فى جنبات الغرفة ، وقدموا تقريراً يفهم منه أن للفتى علاقة بالعمل السياسى .

وجاء الخريف ، وجاءت معه أمطاره الغزيرة . وفى أحد الأيام تسلم غوركى خطابا يحمل نبأ وفاة جدته العزيزة عليه . فاكفهرت الدنيا فى وجهه وأظلمت واعتراه يأس قاتل . وراح يتصور بؤسه المقيم وتعاسته الدائمة ، فمقت الحياة ، واختمرت فى رأسه فكرة الانتحار . فاشترى مسدساً وخرج فى إحدى الأماسى إلى ضاحية من ضواحى المدينة وأطلق الرصاص على جنبه الأيسر . وعثر عليه فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم وهو الرابع عشر من كانون الثانى عام ١٨٨٧ مضرجاً بدمه ، فنقل إلى المستشفى حيث عولج ونجى من إصابته الخطرة بعد جهد .

غادر غوركى المستشفى أشد مضاء وأقوى عزيمة . ورجع إلى مخبز درنكوف وواصل العمل بجد ونشاط . وبين حين وآخر ، كان يزوره فى المخبز رجل يدعى روساس مالبثت أن اشتدت بينهما أواصر الصداقة وتوثقت . ثم عرض روساس على غوركى أن يقبل الانتقال معه إلى قريته ، حيث يوفر له الهدوء والراحة فى مسكنه الريفى . ووافق غوركى ، وغادر المدينة مع صديقه فى طريقه إلى القرية المنتصبة على شاطىء الفولجا . وهناك أخذ غوركى عن قرب يشاهد تعاسة الفلاحين ويتحسس مصائبهم ، ويضيق باستبداد أصحاب الأراضى وإغراقهم فى التيه والجبروت . فانضم إلى جمعية سرية يعمل صديقه فيها وترمى إلى تجريد أصحاب الأراضى من سلطانهم . إلا أن الاخفاق الذريع كان من نصيب تلك الجمعية السرية ؛ فقد فوجىء أعضاؤها بهجوم عنيف قام به أصحاب الأراضى ، وتعرضوا من جرائه هم وأبناؤهم وأسرهم لأبشع

ضروب الغدر والانتقام ، وسقط صديق غوركى صريعاً . ففر من القرية وأخذ يتابع السير نحو الشرق ، حتى أشرف على بحر قزوين ، واستمرأ العيش هناك ، فعمل صياداً للسمك ، وأقام على الشاطىء يملأ النظر برؤية البحر وأمواجه المتلاطمة.

وأقام غوركى هناك مدة ، ثم رجع إلى قازان وعمل حارساً فى محطة سكة الحديد ، وظل يسير ويبده عصا فى محاذاة خطوط السكة من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحاً . واستقر فى عمله ذاك أشهراً قليلة ، انتقل بعدها إلى نجنينوفجرود . وفى تلك المدينة بدأ يرتاد محال العمل ، طلبا لنوع جديد يختلف عن الأعمال السابقة كالحراسة الليلية والخدمة فى المخابز وصيد الطيور والأسماك وغسل الأطباق . ولم يلبث أن الفى فى المدينة جمعاً من أصدقائه الثوريين الذين تلقى مبادىء الثورة أول ما تلقى على أيديهم ، فقطن معهم وأظله وإياهم سقف واحد ، واشتد نشاطه ، فالقى القبض عليه وهو فى بيته ، واقتيد إلى السجن حيث قضى شهراً . وصرف غوركى مدة السجن تلك فى المطالعة ونظم الشعر . ووقع مدير السجن مرة على بضعة أبيات لغوركى ، فحمل الورقة وأخذ يردد الأبيات بلهجة يشوبها الاستهزاء فى الوقت نفسه . وعند الانتهاء منها ، انبرى لغوركى يقول : «أى شعر هذا الذى تنظمه أيها الأحمق ؟ إذهب إلى كورلنكو بعد أن أطلق سراحك ، واعرض عليه نموذجا منه لكى يرشدك إلى الشعر الحقيقى . »

وخرج من السجن وكلمات المدير ترن فى أذنيه . وأسرع يبحث عن كورلنكو ، الأديب الشاعر الذى غطت شهرته الأفق والذى تعرفه جموع المثقفين من أبناء روسيا وأوربا وتعشق كتبه وأشعاره . وسر الكاتب الكبير بالشاب الناشىء ، ولمس مواهبه وتكهن له بمستقبل زاهر . وأخذ يوجهه ويحضه على الكتابة قائلا : « أكتب فى أى شىء كان . صف الطبيعة ومناظرها المختلفة ، وتكلم عن مشاهدتك فى الحياة . » وانصاع غوركى لرغبة كورلنكو ، فجعل يكتب ، وجعل معلمه يحسن توجيهه ويطلعه على مواضع القوة والضعف ، حتى أنس الشاب إلى الكتابة ، ولمس فى نفسه الكفاية فيها والرغبة إليها ، وبقى يحمل فى نفسه أطيب الذكرى وأجلها لمعلمه الأول . ثم غادر نجنينوفجرود ليشرع فى رحلة طويلة فى طول البلاد وعرضها سيرا على الأقدام .

واقتفى أثر الفولجا ، فسار بمحاذاته مئات الأميال . ثم استقر مدة قصيرة فى روستوف ، وانتقل منها إلى أوكرانيا وبسارابيا حيث تجول طويلا فى أنحائهما ، ووصل إلى شواطئ الدانوب فى رومانيا ، وظل شبح الجوع يطارده فى كل تلك الأسفار . وفى أنجازيا لم يستطع أن يجد لنفسه سوى العسل ، يقيم أوده و يرد عنه غائلة الهلاك جوعاً .

ثم ارتد شرقاً حتى جاء القوقاز ، فأقام فى ربوعه مدة طويلة ، وشعر هناك بحاجته إلى قبول أى عمل يعرض عليه ليهيئ منه الغذاء ، فاشتغل أول الأمر حارساً فى بستان ، ثم طباخاً فى منزل قروى ، ثم قارئ صلوات على القبور . ولكنه على الرغم من كل ما كان يلاقيه من صعاب وأهوال فى كل يوم من أيامه البائسة ، ظل متحملا لذلك الشقاء ، قانعاً بظروف القلة والحرمان التى يلاقيها فى أسفاره المتلاحقة . ذلك لأنه وهو يخالط طبقات الشعب الكادحة مخالطة فعلية ويعيش بين الفلاحين المجردين من أبسط الحقوق التى يجب أن يتمتع بها كل انسان ، ويرقب الفقراء المعدمين من أبناء الشعب وهم أغلبية السكان الساحقة ، فى طرق معيشتهم وسكناهم ، صار يتحسس مشاكلهم ويرثى لحالهم ، وتمكنت من نفسه المبادئ الثورية التى لقنها فيما مضى .

وهو كلما ازداد اطلاعاً ومعرفة بأحوال الناس ، نمى فى نفسه الحقد والضغينة على أعداء الشعب . وقد حاول مرة أن ينقذ امرأة عارية مشدودة إلى عربة كما تشد الخيل والسياط تنهال فوق جسدها ، فتجمع حوله سكان القرية وألحقوا به من ألوان انتقامهم ما سبب إقامته فى المستشفى فى حالة خطرة أياماً كثيرة . ولما أفاق واسترد قواه كتب فى مذكراته مصوراً ذلك المنظر الذى رسخ فى مخيلته يقول : «... نعم ! لقد شهدت ذلك المنظر الفظيع بعينى فى قرية كانديبوفا فى اليوم الخامس عشر من تموز سنة ١٨٩١ . »

وما كاد يغادر المستشفى ، حتى سمع باضطرابات تجرى فى مدينة مكوب فخف إليها ، وشاهد الجنود القوزاق ينزلون الهول فى أهل المدينة . فحمل فى الصحف حملة شعواء على سلطات المدينة ، فاعتقل ، ونقل إلى معتقلات الجيش ، وبقى هناك أياماً ، ثم أطلق سراحه واتجه إلى مدينة تفليس حيث آثر البقاء مختتماً أسفاره فى جنوب روسيا .

واتصل فى تفليس بألكسندر كالوجنى ، أحد المنتمين إلى الجمعيات السرية

والذى يملك كما يقول غوركى أثمن المواهب البشرية ، ألا وهى الشعور بالانسانية . كان كالوجنى رجلا رزينا متئدا ، يعرف كيف يتقرب إلى الناس وينال ثقتهم وإعجابهم ويعالج مشاكلهم . ولمس كالوجنى بدوره مواهب غوركى ، فحثه على الكتابة عن رحلاته وتنقلاته . واستجاب غوركى لرغبة صديقه ، فسجل مشاهداته . ثم أخذ كالوجنى يسعى بروية بالغة ، إلى تحويل ذهن غوركى نحو القصة ، فما لبث أن أفلح . ورأى غوركى ينصاع لتوجيهاته ويشرع فى تأليف القصص ، حتى خرجت من بين يديه قصته البديعة الأولى «ماكرخدرا» التى نشرت فى الجريدة التفليسية اليومية «القفقاس» فى تشرين الأول سنة ١٨٩٢ : وفى أواخر السنة غادر غوركى تفليس يكن بين جوانحه عميق الحب لمن استكشف فيه شخصية القصصى .

ولم تكد تمضى بضعة أشهر ، حتى تسلم غوركى دعوة من صديقه القديم كورلنكو يطلب إليه فيها التوجه إلى سمارا ، وقبول وظيفة محرر فى مجلة «سمرسكايا» . وقبل غوركى الدعوة ، وأسرع إلى سمارا ، وأخذ اسمه بعد وقت قصير يتألق فى الصحيفة بجانب أسماء لامعة ككورلنكو وسيبرياك وبخايلوفسكى . وظهرت له قصص عظيمة سجلت فى سفر الخلود «كحنة قاسية» و «سرة فى الخريف» و «حضان» .

بعد سنة من الزمن ، كان اسم غوركى على كل لسان ، وأخذت الجرائد والمجلات المنتشرة فى مدن الفولجا ، تدعو الأديب الكبير لنشر قصصه ومقالاته . وإذ تسلم دعوة للعمل فى جريدة تصدر فى بلدته نجينوفجرود انطلق مسرعاً ، واستطاع فى مدة وجيزة أن يرتفع إلى مصاف تولستوى وتشخوف .

ووقفت السلطات القيصرية من بروز اسم غوركى واتساع شهرته موقف التربص ، وأصبحت ترى فى ذلك الأديب الذى يعالج فى كتاباته شؤون الشعب ويتحدث عن بؤس الشعب وحقوق الشعب ومشاكل الشعب ، خطراً عظيماً يتهددها فى الصميم . فعولت على إبعاده وأرسلته إلى سجن تفليس . ولكنه لم يرهب السجن ، ولم تلن قناته ، فلقن تعاليمه نزلاء السجن ، ثم جاءه العفو لعدم توافر الأسباب عن اعتقاله ، ورجع إلى مدينته ليواصل نشاطه الثورى . وفى سنة ١٩٠١ ، ذهب فى زيارة قصيرة إلى سانت بيترسبورغ . وشهد أثناء تلك الزيارة مظاهرة سلمية قام بها طلبة الجامعة ، وقاومها البوليس

بوحشية وغلظة . وسرعان ما حمل على الحكومة فى مقال عنيف ، اختتمه بقوله «قريباً . . قريباً جدا ستهب العاصفة» . واعتقل من جديد ، واقتيد إلى سجن نجنينوفجرود . وهنـاك ساءت صحته وحل به هُزال شديد ، فهبت البلاد من أقصاها إلى أقصاها تحتج على اعتقال الـكاتب الـكبير وتطلب إطلاق سراحه ، وانبرى تولستوى يدافع عن السجين المريض . فاضطرت الحكومة إلى التراجع وتخلية سبيل غوركى . وعاود عمله محرراً فى الجريدة ، واشتد اتصاله بالمنظمات الثورية ، وأضحى نفوذه عظيما بين الطبقات العاملة ، ولم يثنه إرهاب الحكومة ومطاردتها له عن عزمه ، ولم يضعف من ثائرته . إلا أن السلطات لم تمكن له من حرية التصرف ، فعادت لاعتقاله ونفيه بعيداً إلى بلدة صغيرة تدعى ارزاماس ، معظم سكانها من الرهبان .

وأثار ذلك التصرف حفيظة زعيم الحركات الثورية لنين فكتب يقول : «لقد نفت الحكومة المستبدة من غير محاكمة ، رجلا من أبرز رجال عصره وألمع شخصيات أوربا ، رجلا سلاحه الوحيد حرية الفكر . »

وازدادت صحة غوركى فى منفاه سوءا ، وأصبحت حياته فى خطر . واضطرت السلطات أمام ضغط الجماهير ، واستجابة لرغبة الأطباء فى اطلاق سراحه ، إلى إصدار العفو عنه . وخرج من السجن ، فوجد فى انتظاره الألوف من الطلبة والعمال فى مظاهرة صاخبة أعدوها احتفاء بذلك اليوم . وحمله المتظاهرون على الأكتاف ، وجعلوا يجوبون به شوارع المدينة وهم يهتفون بحياته وسقوط الاستبداد والمستبدين .

وفى سنة ١٩٠٢ ، انعقدت آمال العلماء والأدباء الروس على انتخاب غوركى عضوا فى أكاديمية العلوم . ولما التأم جمع الأكاديمية قررت بالاجماع انتخاب غوركى . ولـكن القيصر لم يشأ لذلك الانتصار أن يدوم طويلا ، فأرسل للأكاديمية كتاباً يقول فيه : إنه غير فخور بانتخاب غوركى عضوا فيها . وعلى الرغم من صدور ذلك الـكتاب عن القيصر مباشرة ، فقد أبى اثنان من أعضاء الأكاديمية أن يتقيدا به ، وهما أنطون تشيخوف وفلاديمير كورلنكو . وليس ذلك فحسب ، وإنما أعربا جهارة عن احتجاجهما على تدخل القيصر فى شؤون الأكاديمية .

وشرع غوركى بعد ذلك التاريخ ، يكتب للمسرح . فألف أول رواياته

«الفلسطينيون» وأتبعها بالرواية الثانية «أغوار الحياة» وجعل محورها معالجة شؤون الطبقات المعدمة . ورغماً عن مرور قلم المراقبة العريض فوق كثير من فقر الروايتين وفصولها ، فقد تقبلهما الجمهور باعجاب وتقدير عظيمين .

وأقبل عام ١٩٠٥ ، عام الثورة الاشتراكية الأولى ، واندمج غوركى اندماجاً كليا مع أصحاب تلك الثورة والمهدين لها . فكتب فى الصحف محرضاً وموجهاً ، ثم حاملا أعنف الحمل وأقواه على القيصر والحكومة القيصرية ، ورافعاً الستار عن فظائع تلك الحكومة والأهوال التى ترتكبها . واعتقل الكاتب المناضل وألقى فى السجن ، وهناك كتب رواية «أبناء الشمس» التى استوحى فصولها من مجزرة اليوم التاسع من كانون الثانى سنة ١٩٠٥ عندما هرع ما يقرب من مائة ألف شخص من سكان سانت بيترسبورغ يستجدون عطف القيصر ويطلبون رأفته ورحمته وتخفيف قيود الحكومة عنهم ، فأجابهم على استجدائهم بفتح فوهات المدافع الرشاشة وتسليطها على صدورهم وهم أمام باب القيصر . وتدفقت سيول الاحتجاج على اعتقال غوركى من جديد ، منها ماورد من أبرز شخصيات روسيا ومنها ما ورد من رجال أوربيين وأمريكيين من أصحاب المكانات المرموقة كبيير كورى وأوغست رودين وكلود مونيت . وسرح غوركى وسافر إلى موسكو حيث راح يجمع التبرعات لشراء الأسلحة والذخائر .

وقبل نهوض موسكو للقيام بثورتها المشهورة عام ١٩٠٥ بأيام قليلة التقى غوركى ولينين للمرة الأولى . وترامى إلى مسامعه عزم الحكومة على اعتقاله ، فاختفى عن الأنظار وتمكن من اجتياز الحدود إلى أوربا فأمريكا . وفى أميركا كتب قصته الخالدة «الأم» التى انتشرت فى العالم أجمع كأسرع ما ينتشر النور . ولم تكد الحكومة القيصرية تعلن العفو عن الفارين من أبناء البلاد سنة ١٩١٣ ، حتى نصح لنين لغوركى بالعودة . وبقى غوركى مدة أربع سنوات يعمل فى الحركات السرية ، حتى إذا ما نشبت الثورة الاشتراكية الكبرى فى تشرين الثانى سنة ١٩١٧ ، كان غوركى من أبطالها . وعند ما وافى القدر زعيم الثورة لنين بمنيته بعد أعوام قليلة ، كان صديقه العزيز غوركى فى جانبه يحنو عليه ويمر يده فوق جبينه .

وشعر غوركى بخطر المرض يستفحل ، واشتدت عليه وطأة الآلام

الجسمانية ، فرحل إلى إيطاليا للاستشفاء ، وعاد إلى وطنه سنة ١٩٢٨ — وكان فى الستين من عمره — فخرج الشعب الروسى بأجمعه يستقبل المناضل الجبار .

فى سنة ١٩٣٢ ، احتفل الاتحاد السوفياتى بذكرى مرور أربعين سنة على صدور أول أثر مخطوط لغوركى .

وفى سنة ١٩٣٦ ، أغمض غوركى الاغماضة الأخيرة ، وانطفأ ذلك السراج المنير . وبكى الملايين فى روسيا وخارجها حزنا على خبو ذلك القبس ، ووقف مولوتوف يندب الفقيد فى حفلة التأبين ويقول : « إننا اليوم نطوى صفحة مجيدة فى سجل تاريخنا . إننا ، نحن أصدقاءه ومعارفه ، نتلقى مع الملايين من أبناء الشعب الروسى ضربة هائلة شديدة الوقع . وإن الانسانية جمعاء لتفقد بعد لنين رجلا عظيما قل أن يجود الزمن بمثله »

[القدس] عفيف شاسم